الثقافة الرباعية

بقلم الدكتور عادل العوا

في الناس ثقافتان رئيستان. وعندنا ثقافات أربع على الأقل

ثقافتا الناس تتفاعلان وتتعارضان. وثقَافاتنا الأربع تود الاتساق والائتلاف.

ثقافتا الناس هما: ثقافة الفرد وثقافة الجمهور. وفي العروبة عندنا ثقافتان إضافيتان قوميتان خاصتان هما: الثقافة التقليدية أو التراثية، أعني ثقافة الأصالة، والثقافة الحديثة والمعاصرة أعني ثقافة التمرد والرفض.

ولنبدأ بالثقافة العربية:

اللغة العربية المبجّلة تقول ثقُف وثقِف (ككرُم وفرِح) ثَقْفاً، وثَقَفاً وثقافة: صار حاذقاً، خفيفاً، فطناً. فهو ثَقِف، وثَقَفي. وثَقِفه (كسَمِعَه) صادفه، أو أخذه، أو أدركه. وامرأة ثَقَاف (كسحَاب): فَطِنة. والثِقاف هو الخِصام والجلاد وماتسوّى به الرماح. وثقّفَه تثقيفاً: سوّاه. وثاقفه: غالبه فغلبه في الحذق.

وليس هنا مجال التوسع في تتبع نماء هذه المعاني بألفاظها وصيغها إلى يومنا الحاضر. وإنما نكتفي بالإلماع إلى دلالات الحذق والفطنة والإدراك مع الخصام والجلاد، أي الجهد والكفاح وتسوية الرماح للفوز ببلوغ الغاية، وإدراك القصد.

ومن شأن الثقافة العربية، عبر تاريخها، أن تتكشف عن منزعين رئيسين:

أحدهما منزع الأصالة، والآخر منزع الحداثة أو المعاصرة، كما نقول بلغة اليوم، وبينهما صراع القديم والجديد كما يقال في كل زمان.

المنزع التقليدي في ثقافتنا عريق تمتد جذوره إلى ماقبل الإسلام. ونحن نلفى فيما عرفنا منه معلومات علمية قليلة، ومعطيات أدبية وإنسانية جمة وفيرة. فإذا مابلغ البحث ظهور الإسلام والتاريخ الإسلامي طالعتنا ثقافة نامية مزدهرة حوت ضروب المعارف، وصنوف الاهتمامات، وباءت بحلول جلّها ديني الجوهر والمبنى. وهذه الحلول الدينية تتسم بأنها ثقافة جاهزة، نهائية، مريحة، حاسمة، مبرمة، قاطعة. اطمأن إليها المؤمنون ورضوا بها فأفسحوا المجال لنمو جوانب طريفة من الفكر الكلامي والعلمي والسياسي والأخلاقي والحقوقي أو الفقهي. وماعتمت نهضة جديدة أن ألمت بالثقافة العربية في التاريخ الحديث والمعاصر، وقد رفدتها بمنازع استغراب وتطلع عالمي أنجب أدلجة في الفكر السياسي والاقتصادي، و «تسييساً» للتاريخ والاجتماع، ومحاكاةً حتى السريالية في الفنون والآداب.

***

وربما جاز إيضاح مابين هذين المنزعين يضرب مَثَل يدور في فَلَك معنى الإنسان.

أجل ـ لقد شُغف الإنسان بمعرفة نفسه في كل مكان، وفي بلادنا، سواء بسواء. وهذا المطلب الثقافي القديم الحديث معاً نستشفه، بادئ ذي بدء، في دلالات كلمة إنسان.

فمن حيث الإنسان الأسم: يقال إنه مشتق من الإنس، الذي هو نقيض الوحشة. أو النوْس، وهو نقيض السكون. أو الإيناس، وهو بمعنى الإبصار. أو النسيان، وهو نقيض الذكر. والمرأة ذاتها إنسان. ويقال لها إنسانة. وهي لغة عامية في نظر بعضهم، أو صحيحة ولكنها قليلة في نظر آخرين. والأنس حديث النساء ومؤانستهم. والناس إنما يأنس بعضهم ببعض.

أما من ناحية الإنسان المضمون، الإنسان الفحوى، فإن غنى الثقافة العربية يفرض علينا هنا الإيجاز، ويوجب الاقتصار على شطري الثقافة التراثية، ثقافة الأصالة المتَّهمة بأنها ثقافة صفراء. وأول هذين الشطرين هو المنحى الإعتقادي المستقى من أصول الكتاب والسنَّة، ثم من كنوز الأمهات والمصادر اللاحقة المتعاقبة إلى اليوم، وفيها تنعكس أصداء المستويات العقلية العربية ـ الإسلامية كافة، من طرفها الأقصى الشعبي، بل العامي، إلى طرفها الأقصى الآخر وهو الطرف العالِم والمعتزلي والفلسفي والصوفي. وليس بمجدٍ في رأينا تجاهل أحد هذين الطرفين دون صاحبه، ولا التغافل عنهما كليهما. فهما موجودان في الواقع، وإن تفاوت تقويمهما أعظم التفاوت، فما برح عندنا ذوو إيمان عفوي أولي بسيط موروث، وما برح عندنا كذلك عارفون مولعون بقيم التمحيص الانتقادي الهادف الدقيق.

انموذج تراثي أول يقول، وهو انموذج وثوقي:

خلق الله الإنسان الأول، آدم، في أحسن تقويم. وسخر له مافي السموات والأرض. ورسم شروط وجوده في الدنيا جماعات وشعوباً وقبائل. وخلق البشر بعدئذٍ من ذكر وأنثى. وجعل بين الزوجين مودة ورحمة. وطلب

من الإنسان الذي استخلفه في الأرض أن يؤمن به، ويعبده، ويعمل صالحاً. وخصّه بالعلم وبالبيان. وكلّفه مايطيق، في حدود حريةٍ وقدرة ومسؤولية. ووعده بالثواب أجزله، أو بالعقاب آلمه، في حالَتي الطاعة أو الرفض. فكان ذلك كله، وما واكب ذلك كله، إطار الثروة الفكرية في الثقافة العربية التاريخية التليدة: وفيها يبدو الإنسان كائناً معلوماً، بل مبرمجاً، جلي النشأة والمصير.

وإليكم بعض الإيضاح.

فمن حديث الثقافة التقليدية: أن الله خلق الإنسان الذكر أولاً. وألقى عليه النومَ فنام. فأخذ أحد أضلاع شِقه الأيسر، أي من جهة القلب، وهذا رائع، فكانت زوجه حواء. وقد سميت حِواءَ لأنها خُلقت من شيء حي. خلقها الله لتسكن إليه، ويسكن إليها. وكان مهرَ إقترانه بها الصلاةُ على النبي ثلاث مرات. ويروى عن (أبي الحسن الأشعري) أن آدمَ كان أحسن من حواء. ولكن حواء كانت ألطف وألين. وكان لهما في الجنة سرير من الجواهر. وله سبعمائة قاعدة من الياقوت الأحمر. وعليه فراش من السندس الأخضر. وقد وافتهما الملائكة بقِطفين من عنب الجنة. وكان كل قِطف منهما مسيرةَ يوم وليلة... وكانت حواء إذا مشت في القصور واكبها خَلَفها من الحور العين مالا يحصى...

تلك كانت حياة الجنة التي فقدها أبوانا، عفى الله عنهما، وقد فعل. وإذا نحن كما ترون، وحيث ترون. وما ينتظرنا ساعةَ الموت وبعده رهيب رهيب. ألم نقرأ قصة المعراج المنسوبة إلى (ابن عباس)، وهي قصة في متناول كل يد: نلفاها مع «الباعة» على الأرصفة، وفي المسكية، وقد عرفناها قبل أن يعرفها

(دانتى)، كما يقال. وعرفنا معها فصول «إحياء علوم الدين» (للغزالي)، وفيه أسماء القيامة ويوم الدين والبعث والنشر والحساب. وهذا كتاب آخر يُطبع من جديد ويفد إلينا وقد وضعه (يوسف بن إسماعيل النبهاني) بعنوان «علامات قيام الساعة الصغرى والكبرى». ومثل هذا النشاط الثقافي كثير كثير.

وثمة انموذج تراثي آخر، انموذج عالِم:

وهذا الانموذج جماع ثقافتنا المتألقة بالنظر الجادّ، والفضول الحميد الآيل إلى إعمال الفكر، وانفتاح العقل، وتوسيع المعرفة، وتدقيق المناهج، وإيضاح الثمار، وبلوغ الأوج في حضارة القول والعمل، من علوم متقدمة كالرياضيات والهندسة والفلك والطب والجغرافية وحتى الموسيقا والفنون والآداب، إلى المطلب الموسوعي ومَعلمات الإنسانيات. تشهد على ذلك آثار (الجاحظ) و (النظّام) و (ابن قتيبة) و (التوحيدي) و (مسكويه) و (المعري) و (السجستاني) و (إخوان الصفاء) وكذلك (البيروني) و (الشريف الرضي) و (ابن عبد ربه) و (ابن حجة الحموي) و (النويري) و (التهانوي) و (ابن خلدون)...

لنُصغِ لحظة إلى قول (ابن قتيبة) عن مائدة الثقافة الشهي أُكُلها لكل ذي عقل سليم، ونظر ثاقب، ورأي سديد حصيف.

يقول: «وهذه عيون الأخبار نظمتها لمُغْفِل التأدب تبصرة، ولأهل العلم تذكرة، ولسائس الناس ومسوسهم مؤدّباً، وللملوك مُستراحاً من كدّ التعب، وصنّفتها أبواباً، وقرنت الباب بشكله، والخَبَر بمثله، والكلمة بأختها، ليسهل على المتعلم علمها، وعلى الدارس حفظها، وعلى الناشد طلبها». ثم يردف: «لم أر صواباً أن يكون كتابي هذا وقفاً على طلب الدنيا دون طلب الآخرة، ولا

على خواص الناس دون عوامهم، ولا على ملوكهم دون سُوقَتهم، فوفّيت كل فريق قِسمه، ووفرت عليه سهمه، وأودعته طرفاً من محاسن كلام الزهاد، ولم أُخلِه مع ذلك من نادرة طريفة، وفطنة لطيفة». فهذا الكتاب إذن «مثل المائدة تختلف فيها مذاقات الطعوم لاختلاف شهوات الآكلين[1].

ويجلو (النّظام) حقيقة الاغتذاء بالكتب منبّهاً إلى مشكلتي الثقافة العامة والاختصاص.

يقول: «إن الكتب لاتحيي الموتي، ولاتحوّل الأحمق عاقلاً، ولا البليد ذكياً. ولكن الطبيعة إذا كان فيها أدني قبول فالكتب تشحذ وتفتق، وترهف وتشفي. ومَن أراد أن يعلم كل شيء فينبغي لأهله أن يداووه. فإن ذلك إنما تُصوّر له بشيء اعتراه. فمن كان ذكيّاً حافظاً فليقصد إلي شيئين أو ثلاثة أشياء، ولا ينزع عن الدرس والمطارحة، ولايدع أن تمرّ على سمعه، وعلى بصره، وعلي ذهنه، ما قدر عليه من سائر الأصناف. فيكون عالماً بخواص، ويكون غير غافل عن سائر مايجري فيه الناس».

أجل، أن يكون المرء عالماً بخواص، وغير غافل عن سائر مايجري فيه الناس، ذاكم هو الشعار الذهبي لكل ثَقِف، وفي كل ثقافة. وهذا هو (الجاحظ)، معلم العقل والأدب، يحقق هذا الشعار بعقل راجح، وأدب حي، وفكر ناقد، وأسلوب جلي، متنوع، فكه، عذب، يجاوز بطماحه الحدود القومية والدينية واللغوية وحتى الظرفية ليشارك في علم الناس كافة، وفي معرفة البشر أجمعين. أفلا يستهل كتاب «الحيوان» بقوله: «وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم، لأنه وإن كان عربياً أعرابياً،

وإسلامياً جماعياً، فقد أخذ من طرف الفلسفة، وجمع معرفة السماع وعلم التجربة، وأشرك بين علم الكتاب والسنّة، وبين وجدان الحاسة، وإحساس الغريزة. وقد نُقلت كتب الهند، وتُرجمت حكم يونان، وحوّلت آداب الفرس، وانتهت إلى العرب، فبعضها زاد حسناً، وبعضها انتُقص شيئاً. ولكن الحقيقة واحدة، تنمو بتعاقب الأقوام، وتآزر الأمم والأجيال».

ويمضي (إخوان الصفاء) إلى بناء الحضارة الإنسانية المثلى فوق عقائدية شمولية هي أدنى إلى النظام العالمي الجديد العتيد. كيف لا والحقيقة كلها تنهد عندهم على أساس الإنسان، وصورة الإنسان. يقولون: «إن مذهب الإخوان يستغرق المذاهب كلها، ويجمع العلوم جميعاً. . ونحن قد أجبنا عن المسائل كلها على أصل واحد، وقياس واحد، وهو صورة الإنسان. لأن صورة الإنسان أكبرُ حجة لله على خلقه، وهي الطريق إلى كل خير، والصراط الممدود بين الجنة والنار».

ونختم الإشارة إلى هذا الانموذج النيّر من ثقافتنا التراثية الأصيلة بقبسة من كلام القاضي المعتزلي (عبد الجبار) القائل في «المغني»: «إعلم أن الفصاحة لاتظهر في أفراد الكلام، وإنما تظهر في الكلام بالضم، على طريقة مخصصة. ولابد مع الضم من أن يكون لكل كلمة صفة. وقد يجوز في هذه الصفات أن تكون بالمواضعة التي تتناول الضم. وقد تكون بالإعراب الذي له مدخل فيه. وقد تكون بالموقع. وليس لهذه الأقسام الثلاثة رابع»[٢].

بمثل هذا الانموذج الماجد تجمع ثقافتنا بين عمق الفكر ومتانة التعبير، وسحر الكلمة، وفتنة البيان، فضلاً عن شمول كلي خَصَّ (ابن عبد ربه) الكلام

عليه بخمسة وعشرين كتاباً من «عِقده الفريد». وجعل في كل كتاب منها جوهرة من ذلك العِقد. ونضد (النويري) فنون الآداب، أي الثقافة، ضمن خمسة من الفنون، يحتوي كل واحد منها على خمسة أقسام. أولها في وصف السماء التي هي قبلة الدعاء، وفيها الآثار العلوية، وحديث الكواكب والسيارات والفصول والليالي والشهور والأعوام. ثم فن يتصل بالإنسان وبكل ما يمتّ إليه بسبب معرفي وعملي وفني وأدبي. والثالث فن في الحيوان، كل حيوان. والرابع يتناول النبات، والأقوات، والفواكه، والرياض، والطيب، والأزهار. والخامس تاريخ البشر من مبدأ آدم إلى أن وَضَع المؤلف ذاك الكتاب[٣].

***

إن هذه الثقافة التراثية، أقول القومية، هي ماتلقى من المتمردين الثقافيين رفضاً قاطعاً كان جديراً بالتقدير والقبول لو أنه بُني، كله أو جلّه، على أساس المعرفة الدؤوب، والنقد السليم. ولكن تطرف فريق من الآبقين إنما ينبثق في الغالب من عقدة الدونية، أو يشاد بلُهاث وراء «خالف تعرف»، وبجري متعجل نحو الشهرة، ولو كانت في خواء، شأن ناطقي بعض الشعر المنثور المستطرف غير المستظرف، الشعر اللاموزون، أي الممطوط تنغيماً لانغماً، والضبابي صورة، لا (الرامبوي)، رمزاً...

يقول باحث منهم: «إذا أردنا أن نقدّر الأمور حق قدرها وجدنا أن العرب اليوم يلتقون ثقافياً على الماضي... وقلّما يلتقون في الحاضر، حيث تحاصرهم المشاكل المتفرقة والخاصة في كل بلد من البلدان على حدة»[٤]. ويقول غيره:

«إن كلمة مثقف قد انزاح معناها . . وما ممانعة مثقفنا عن التبدل والاستدراك والتحول إلا ممانعة عن الانخراط في العالَم . وهذا السلوك النكوصي هو التلبية الواضحة لمعنى المثقف الشمولي، أي المثقف الموسوعي . . . وهذا المثقف العربي [الحاضر] لم يعرف سوى شكل واحد من الثقافة، ثقافة الرفض . . التي تضع المثقف أمام مهمة اكتشاف الحقيقة الثابتة التي لايطرأ عليها التبدل، والتي تنتظره دوماً في الماضي»(٥).

ومن الرافضين من يقول: «باسم الحفاظ على سلامة اللغة، كما سجّلها «لسان العرب»، حكمنا على البحوث في العلوم الإنسانية بالعقم. وباسم الحفاظ على العقيدة الايديولوجية، تقدمية كانت أم سلفية، حكمنا بالشلل على الفكر»(٦).

ولعل إثبات هذه الآراء المبتسرة يكفي وحده لإماطة اللثام عن تعجلها المخلّ المؤدي إلى زوغان الرؤية، ومن ثَم، إلى الخطل، فالخطأ.

* * *

لننتقل إلى حديث الثقافة بالمعنى العالمي.

قالوا: «الثقافة هي مايبقى في النفس بعد نسيان كل شيء». وقالوا: «الثقافة طريقة أنيقة لشَغْل أوقات الفراغ». وقالوا: «المثقف لايكون البتة ابن زمان واحد، ومكان واحد. فحرية ذهنه تكفل حضوره في كل زمان وكل مكان».

والحق أن لكلمة ثقافة بمعناها العالمي حياة موصولة، وتاريخاً ثرّاً. ويبدو

أن اللفظ الأجنبي الدالّ على معناها إنما ظهر للمرة الأولى في القرن الميلادي الخامس عشر، في معجم (اكسفورد) لسنة (١٤٢٠). وأصل دلالة لفظها يشير إلى معنى الزراعة والحرث واستصلاح الحقول لجني الثمار اليانعات. ثم استعملت مجازاً بمعانٍ متلاحقة: فكانت تعرب في العصور الوسطى عن المشاغل اللاهوتية والكلامية، إلى أن شُغف المفكرون في القرن الثامن عشر بفكرة التقدم والأنوار الموسوعية، وأولع القرن المنصرم بمستقبل العلم والحضارة. ونمت في أعقاب الحرب العالمية الثانية من عصرنا اهتمامات التنمية ومشكلات الفضاء والتلوث والإيدز، والحرب والسلام، وأسلحة التدمير الشامل، وأخطار البرمجة الوراثية، وإمكانات علوم الحياة، والنظام العالمي الجديد، وأنى لمثله أن يكون جديداً إذا لم يُغيّر العتُاة مافي نفوسهم حتى تتغير الآفاق.

ولعل قائلاً يتساءل عن مصير الثقافة في عهد النظّامة أو الحاسوب، وفي مشارف القرن القادم، فيجد أن النماء الديمقراطي المرموق يشدّ أزر التوسع المذهل في تطور وسائل الإعلام، فتصبح الثقافة خدن الجماهير العريقة، ويزداد بذلك إعضال التفاعل والتباين بين الثقافتين المعاصرتين: ثقافة الفرد وثقافة الجمهور.

***

رأى الخالدون في أحد المجامع الأجنبية أن الثقافة، بالمعنى المجرد العام، تعني العبقرية الإنسانية مضافة إلى الطبيعة، بغية تحوير معطيات الطبيعة وإغنائها وتنميتها، وذلك بالأعمال والتقنيات الموائمة. كما أنها تعني، من ناحية أخرى،

إنكباب الإنسان بصورة منهجية على تنمية ملكاته الفطرية بدراسة الآداب والعلوم والفنون، وبالملاحظة الشخصية والتفكير.

بيد أن حقل الثقافة أشد اتساعاً وأكثر غنىً. فثمة مايخصص الثقافة العامة بصفات مميزة، ونعوت من طراز قولنا: ثقافة فلسفية، أو أدبية، أو فنية، أو علمية، أو تقنية، . وربما أريد من الثقافة أن تدل على شروط اكتسابها، وسبل تحصيلها. فيقال: ثقافة حفظية، أو اختبارية، أو عصامية، أو مدرسية، أو تراثية، أو حديثة، أو تقنية. وكثيراً ماتُوسم الثقافة بأنها واسعة أو محدودة، أو اختصاصية، أو عامّة تلمّ بالمعلومات الأساس التي تسبق كل اختصاص دقيق، أو تواكبه.

والذائع في ثقافة اليوم أنها تعني، على الصعيد الاجتماعي، جملة الوجوه الفكرية والأخلاقية، والمادية، والمذاهب القيمية، وأساليب الحياة التي تميز حضارة من الحضارات. كقولنا: الثقافة العربية، والثقافة الإغريقية، أو الثقافة الأمريكية، أو الغربية، أو الاشتراكية. وسنرجع إلى تبيان صلة مفهوم الثقافة بالطبيعة وبالحضارة بعد قليل.

والثابت في الأمر أن وقائع الثقافة المجتمعية لم تبق وقفاً على فئة مختارة من الناس، فئة قليلة العدد، كثيرة العَتَاد. بل صارت تطمح إلى المشاركة الشاملة داخل القطر الواحد، وبين سائر الأقطار.

لقد أُحدثت داخل كل قطر بيوت للثقافة، ومعاهد، ومراكز. وكان (موسوليني) أحد روّاد هذا الإبتكار إظهاراً للعزة الإيطالية ومجد (رومة) العتيق. وأنشأت الدول المتقدمة، أعني المسيطرة، مراكز ثقافية تسبّح بحمدها،

وتنشر أغراضها في أقطار العالم الثالث، أو عالم الجنوب. واتسع الأمر فأنشأت (الأمم المتحدة) منذ (١٩٤٥) منظمة (اليونسكو) للتربية والعلم والثقافة. وهي ترمي إلى توحيد ثقافي عالمي، أو إلى مجرد تنسيقٍ ووئام فكري، لإيمانها بأن إندلاع الحروب يبدأ في العقول قبل الجوارح، ورأت الاهتمام بثقافة الجمهور كل جمهور، في نطاق الدولة أولاً، ومن ورائه في نطاق الدول الأعضاء في المعمورة كلها. وتلتها بعد دهر منظمة (الالكسو) في نطاق جامعة الدول العربية، ومن أجل تحقيق أغراضها. وأُحدثت في العالَم وزارات للثقافة هنا وهناك. وأقام (المجمع الفرنسي) لجنة للشؤون الثقافية يتعاقب على رئاستها نابهون فنابهون. وأشاد فنانون مبدعون في باريز (مركز بومبيدو) الثقافي الذي أمسى قبلة سائحين، ومحطة قارئين، وملتقى شعراء ومشعبذين. وتنوعت أغراض العناية الرسمية بتثقيف الجماهير بل الحشود. وسُخّرت من أجل ذلك وسائل خلاّبة من فنون رسم وغناء ورواية وتمثيل ورقص وتطريب... وبذلك حلّت هذه الوزارات الثقافية بمناشطها محل العاملين سابقاً في المعابد والمساجد للإرشاد الجماهيري الوسيع...

ومثلما تعتور حالاتُ تطرفٍ عالَم الأزياء والعروض، كذلك أثار التوجيه الثقافي والإرشاد الفكري المسبق ردود فعل وارتكاسات بعضها أصبح كافراً بالقيم الذائعة، فكانت من جراء هذا كله مفهومات اللاثقافة، أو الثقافة المضادة، أو ثقافة اللامعقول، وهي مشفوعة بالحركات الهيبية والتمرد الطلابي ونفثات الفوضويين. وثمة من يتحدث عن التفاعل الثقافي ويدعوه المثاقفة، وعن المذهبية الثقافية، والتكيف الثقافي، والكفاح الثقافي، والأمن الثقافي،

والغزو الثقافي، بل وعن الصناعة الثقافية إنتاجاً وتسويقاً بمسلسلات تلفازية عجيبة عجاف.

لقد كاد معنى الثقافة أن يعمّ كل المسالك في كل الممالك. فغدت ألعاب الفكر كالشطرنج، وألعاب الجسد كالألعاب الرياضية الأولمبية ومايحاكيها، واقعاً ثقافياً. وأصبح بعض «آلهة الملعب» أوثان عصرنا مثلهم مثل نجوم المسرح وسيدات الغناء. ثم اتسع مفهوم الثقافة انتريولوجياً واجتماعياً، فصار فن المائدة، والأزياء الرفيعة وما إليها موضوعات ثقافية شأنها شأن ماتحمل الكتب واللوحات والاسطوانات والأشرطة والتمثيليات. ورأى (ت. س. اليوت) أن المطبخ المرهف، وفن الخمور، شكلان من أشكال التعبير الثقافي. وأن سماجة المطبخ الانكليزي أمارة إنحطاط. وكان (ماوتسي تونغ)، في «كتابه الأحمر»، يوجب على كل ثقافة، وكل أدب، الانتماء إلى طبقة معينة، أو إتباع خط سياسي هادف. وجاءت ثورته الثقافية بين سنتي ست وستين وتسع وستين وتسمائة وألف مسعى طموحاً لخلق الإنسان الصيني الجديد بشراً سوياً متحرراً من كل إنخلاع شرير.

هناك شعارات: «الثقافة لكل إنسان»، «الثقافة للجميع»، «الحق بالثقافة». وهناك مفهوم الهُوية الثقافية القومية، ومطلب الثقافة المستمرة الداعي إلى التكوين المتجدد طوال الحياة للحفاظ على الثقافة المعاشة وتنميتها أبداً.

***

قالوا: هناك ثقافة رفيعة هي ثقافة كبار العلماء والأدباء والفنانين والمفكرين. وهم جميعاً يُعنون بمشكلات العالم الكبرى. وهناك ثقافة أولية هي

الثقافة الأساسية، أو الحد الأدنى من الزاد الثقافي الذي يرفد كل إنسان بوسائل كسب رزقه، وهي قد لاتزيد على مايلقاه من التربية والتعليم والتدريب المهني والاجتماعي المعرفي المحلي.

ولكن التمييز الإشكالي الأوفى في أيامنا إنما هو افتراق ثقافة نخبة هي الثقافة الفردية في جلّ الأحيان، عن ثقافة عامية، ولاأقول شعبية، لأن مفهوم الشعب هو الأشمل والأجمع، وهو غير مفهوم الجمهور، إذ يقال عن السيد الهمام المقدَّم في قومه، البارّ بأمته: ابن الشعب، ولا يقال ابن الجمهور.

الثقافة العامية ثقافة عفوية متوارثة في الجماعات الضيقة. وهي تراث مشترك عملي الأهداف بالدرجة الأولى. وهي تتباين وتفترق من شعب إلى آخر، ومن جُمهور أو وسط إلى سواه. بل هي ثقافة قلّب حولّ في وقت واحد، وعَبر الأوقات المتعاقبة، لأنها وليدة ماينبثق عن حياة العامة بتفاوت أهوائهم، واستسلامهم للشطط والانفعالات مرة ثم مرات. ومما يميز ثقافة الجمهور أي ثقافة الحشود في الأحوال كافة، وفي أيامنا بوجه خاص، الطواعية العقلية الخالية من الروح الانتقادية، والمنحدرة دوماً إلى سرعة التصديق، وقلة التمحيص والتدقيق.

جاء في كتاب «الأغاني» أن امرءاً وعظ الناس حتى كثر الزحام عليه فقال لهم: رَوى لنا غيرُ واحد أنه مَن بلغ لسانه أرنبة أنفه لم يدخل النار. فما بقي أحد إلا وأخرج لسانه يومئ به نحو أرنبة أنفه. ثم يخاطب هو صاحبه بقوله: ألم أخبرك أنهم بقر! وقد حدثنا الأستاذ (محمد كرد علي)، الرئيس الأول لمجمع اللغة العربية بدمشق، عن انموذج مقتبس من تجربته الشخصية، فأبان افتراء

المفترين عليه، ونقمة **الرأي** العام حين أخذ الوالي **وبعض** المشاغبين التشفي منه. ولكنه عاد من منفاه ذات يوم، فاستُقبل استقبال العظماء، وبالغ **بعض من** استقبلوه **بالحفاوة**، وهم يزيدون على **ألفين**. وهو يعلّق على **ذلك** بقوله: «فلم **أدر وجهاً لرضاهم ولا لغضبهم**. فكتبت إلى صديقي المرحوم العلاّمة (رفيق بك العظم) أقول له: إن القوم لاقوني في دمشق هذه المرة كما يلاقون الملوك. فلم أفرح بهذا الاقبال، ولا ساءني ذاك الإدبار. وعجبتُ لجنون من ينخدع بالجماعات الذين لايثبتون بحال على أفكارهم[٧]».

لقد أصبح الجمهور في عصرنا حامل ثقافة موجَّهة بوسائل شتى أنجعها وسائل الإعلام. والمثقف هو، **بادئ ذي بدء، ذاك الذي يفطن إلى استشفاف** حقيقة مايقال بنسبته إلى قائله. فليس بكافٍ في أيامنا أن نعرف الحق لنعرف أهله. وإنما ينبغي أن نعرف الحق بمعرفة حقيقة أهله أولاً، وذلك في علاقة جدلية لاتنفصم عراها، ولكي تتكشف حقيقة الحق صراحاً دونما تزييف خفي، أو نصف خفي. وهنا تبرز أهمية الثقافة الفردية، وتنجلي وظيفتها، وينبجس نورها.

المثقف الفرد هو العقل المثقف. إنه ذاك الذي اجتاز عدداً كبيراً من حالات التدرب على التفكير، والذي يستطيع أن يبصر من خلال عدد كبير من وجهات النظر لاستنباط الحكم الصحيح مطلقاً، جهد المستطاع، لا الحكم الصحيح في ظروف معينة، وملابسات خاصة عابرة.

قيل: لو لم يوجد (ارسطو)، و (ابن رشد) و (رافائيل)، و (موزارت)، وأضرابهم لكانت خسارة البشرية فادحة لاتُعوَّض. وهذا قول حق. ذلك أن

الفرد ابن المجتمع . وهو خادم المجتمع . وهو وحده قادر على تجاوز ذاته والعمل على تغيير المجتمع وتطويره وتقدمه . والمجتمع في كل آن كائن رجعي ، محافظ ، تقليدي . وثقافة المجتمع ثقافة اجترار وتكرار . أما ثقافة الفرد فهي موئل جميع أشكال التغيير الأدبي والفني والعلمي والتاريخي والتقني . فالأفراد ، إذ يعملون بمواهبهم الفردية ، حتى في إطار التجمعات والمنظّمات والأحزاب ، هم الذين يحققون لأممهم تقدماً ، ولشعوبهم تحسناً ، والنخبة حالَ عمل الفريق ذاته هم جماعة هؤلاء الأفذاذ . وَصَمهم نقّاد في بعض الأحيان بنعوت العار والشنار . ولكن الجمهور وحده يظل كتيماً ؛ إنه كائن أعجم لايفكر ، بل يعرب عن أفكاره من خلال أخياره مثلما يُفصح الشاعر العربي عن ثقافة قبيلته وأغراضها بترجمة مشاعرها ومآربها وارادتها .

الجهد الفردي مطلب أساسي . والتقنيات الحديثة منجزات رئيسة تسهم اليوم في النشاط الثقافي ، وتيسّر أسبابه ، وتتيح شتى أدواته ، وقصارى عونه ورفده . ولكن الشخص ، لا الجمهور ، هو الفاعل الثقافي المبدع ، وليس السواد ، ولا النظّامة أو الحاسوب . ولا مناص من الحذر من استعمال التقنيات المتقدمة والمذهلة ، ولاسيما الإعلامية الموَّجهة ، وهي كلها تسهم في سلب الثقافة جوهرها ، فتغدو الثقافة بالسلب سلبية ، ثقافةً تحضّ على الكسل والتواني في أضأل أخطارها شأواً ، وتنمي السطحية والانفعالية واللاعقلانية ، بل وتمحو تفاوت المعاني ، وتجعل بعضها صنو بعض ، فتميت الإحساس بالفوارق ، وتزيل التمايز والتمييز ، وتنجب اللامبالاة وقبول مايصح ومالايصح . آية ذلك التأثير الإعلاني ، وفعِل الصورة واللون والنغم ، وتخدير التكرار المملّ الدؤوب ، حتى

يتم التسليم والاستلام. إذا سأل خطيب جمهوراً: هل تحبون العدالة؟ أجاب الحاضرون: نعم. وإذا سألهم: هل تكرهون الظلم؟ أجابوا بمثل ذاك الإجماع. وجوابهم في الحالين مشفوع بصخب تأييد قوي فوري. أما إذا سألهم: ماالعدالة؟ طالعه صمت كصمت القبور. وهذا الصمت هو ماينبغي أن ترفضه ثقافة الجمهور إلى أن يرقى الجمهور أو الحشد من واقع المعطى الهلامي إلى منزلة الشعب الواعي الرائد المسؤول.

لنكتفِ الآن بالماعة إلى ثلاثة من الاهتمامات الثقافية المعاصرة التي تسري مفاهيمها وقيمها من ثقافة الفرد إلى ثقافة الجمهور عندنا وفي كل مكان.

هناك أولاً: دلالة العقائدية (أو الايديولوجيا) ودورها في حياة الناس والمجتمع. ثم دلالة المستقبلية، وهي تَصور ماسيحدث، أو ما ينبغي أن يحدث في دنيا البشر وعلى ظهر كوكبهم المهدَّد بالأخطار. والثالث دلالة حضارة جديدة تفرض ذاتها على ثقافات الأمم والأقوام، ونعني بها حضارة أوقات الفراغ.

إن هذه المفهومات، وكثيراً مثلَها، تَطرح على المعنيين بأمور الثقافة والتوجيه، أي الإرشاد القومي كما نقول، توعية الجماهير في ضوء مايبسطه العارفون المخلصون من حقائق تؤدي إلى السلوك الأفضل، والتقدم الأصح.

فالايديولوجيا أو العقائدية من أكثر المقولات ذيوعاً، وأشدها غموضاً. وتحت لوائها تلتقي إمكانات الخطأ والصواب. فقد بدأ ظهور هذه اللفظة في القرن الثامن عشر، وكانت تدل على دراسة العقل البشري وتحليل ملكاته. ثم تحولت من الدلالة العلمية إلى معنى عقائد جماعة أو أمة أو حزب، ولو لم

يشفعها الفكر الانتقادي. وقد كره (ماركس) هذا المفهوم في بادئ الأمر. ثم وَهَب أنصار الماركسية في العالَم الاعتراف به، واعتناقه، فمضى من قدح إلى مدح. وقد عمَّ استعماله اليوم حتى في البلدان الرأسمالية والمتخلفة. ولامناص من الدعوة إلى الاستبصار الثقافي في مجاله، شأن الحال في سائر المجالات.

أما النظرة المستقبلية فهي الحافز إلى التخطيط، ومؤسسات التخطيط. وهو حافز ينطلق من العلم إذ يكون العلم صحيحاً فيفسح المجال أمام التطبيق القادم الموَّجه إنسانياً. وهذا هو التنبؤ الذي أتاح، في البدء، لأمثال الراهب (مالتوس)، التنبيه إلى خطر الجوع الشامل بنتيجة الإخصاب الخصب، وتكاثر الولادات، فكان من ذلك تنظيم الأسرة، ومنع الحمل، وإعداد العدة لانقاذ الأرض والعباد من أخطار جسام. ولابد في هذا كله من الاستبصار الثقافي أيضا، حتى ينهض الواعون من الأفراد بإماطة اللثام عن حقائق هذه الآمال المستقبلية، وحدود الواجبات المترتبة على الإيمان بصحتها في ضوء تدقيق سليم.

تقول ثقافتنا، من حيث المبدأ، «إعمل لدنياك كأنك تعيش أبداً». وقد دعت ديانات ومذاهب شتى في الثقافة العالمية إلى العمل، والانتاج. وعاب (مركوزه) الحضارة الصناعية الشديدة التقدم، ووصمها بأنها «حضارة المردود»، أو «حضارة البعد الواحد»، «حضارة اللاإنسان». ورأى (ماركس) من قبل كفاية استجمام الكادحين بما يكفل لهم إمكان استئناف العمل باستعادة القوى اللازمة لرجوعهم إليه. ولكن التطور الراهن يتمخض عن أهداف طريفة تجاوز تلك الدلالات الغابرة، وتنادي بمولد حضارة اوقات الفراغ، وهي تعني إتاحة

الفرصة أمام كل إنسان، كادحاً عضلياً أو فكرياً، بل وغير كادح أيضاً، لينصرف بملء اختياره، إما إلى الاستراحة أو إلى التسلية، أو إلى التعلم، أو إلى ممارسة هوايات فنية، أو التطوع للابداع أو للإسهام في خدمات اجتماعية، متحرراً من الالزامات المهنية والأسرية والمجتمعية. ولم تنج هذه الحضارة المتحررة ذاتها من ربقة التوجيه والتثقيف. فأصبح المتحررون أنفسهم موضع عناية المؤسسات ووزارات السياحة لترى لهم ماتريد هي من ضروب الممارسة وصنوف الاختيار.

***

وبعد: فما جوهر الثقافة، وماثقافتنا نحن؟

نافع، بادئ ذي بدء، أن نلمع إلى اللاثقافة، أو وهمِ الثقافة، بل نصفِها، أو أنقص من ذلك قليلاً.

الثقافة ليست لقباً جامعياً، أو رسمياً. وهي ليست علماً بكل شيء. وقد أوجب (النظّام) قصر الاختصاص على شيئين أو ثلاثة أشياء والإلمام بسائر مايُعنى به الناس. ويألف قائلون كثُر حدَّ الثقافة بالفعالية الفكرية والأدبية والفنية. ومن هنا عبارة انصاف المثقفين، وانصاف الانصاف...

الثقافة إعراب عن الحياة، واقعاً ومطلباً. وهي العقائديات والديانات والفنون والعلوم والآداب. إنها، بوجه التقريب، مايدل عليه الماركسيون بعبارة البنية الفوقية، وما أفرده (هجل) باسم الروح الذاتي بمقابل الروح الموضوعي أو الحضارة. ولكن لندع جانباً فلسفة الثقافة، ولنقل بيسر إن الثقافة مطلب كمال.

وكمال الإنسان وعي إنسانيته، وإنجاز طبيعته. صحيح أن الإنسان يتحرك بعمق أعظم في المجال الثقافي الذي يألفه، وفي جو البيئة الثقافية التي ينهل منها، ويحيا أغراضها، ويعي مقتضياتها. ولكن لامندوحة من أن يجاوز المثقف الواقع الراهن في حضارته تطلعاً دائباً نحو الأفضل والأسمى. وهذا يؤدي، في آخر المطاف، إلى تصور ثقافة عالمية ستكون ثقافة جمهور إذا ماتحققت خصائص الإنسان الإنسانية. وهذا الغرض شبه المحال الآن، يظل غاية قصوى، وقيمة مثلى، ولو بدا هُزال تحققه في مستقبل منظور.

إن الثقافة جهد. وهو جهد يشارك فيه البشر قاطبة، وإن تفاوت إسهامهم فيه قيمةً ودرجة وأسلوباً. وعلى النخبة، على ثقافة الأفذاذ، النهوض بوعي الغاية المرموقة أولاً، وهي الحضارة الإنسانية حقاً، أعني المدنية التي تسودها قيم الأخلاق، ومِن خلف الأفراد الأفذاذ الأخيار تأتي مشاركة الشعب والشعوب، مشاركة العامّة، الناس، كل الناس، في المنحى ذاته، ومطلب الغرض عينه.

وبقول آخر، إن الثقافة في رأينا جسر يصل الطبيعة بالحضارة. جسر يربط الطبيعة، وهي الكون الذي نجده حيالنا، ونجدنا حياله، يربطها بما يبذّها، بهدفها الذي هو الغاية الحضارية التي يريدها الإنسان لعالَمه ووجوده في الأرض.

إن ثقافتنا العربية، في هذا الزمن المخاض، ثقافة معقدة، متفاعلة، حارّة، حائرة، شأنها شأن وقائعنا القيمية كافة، وعلى الصعد كلها. وهذه الثقافة الحيّة رباعية الأبعاد أو العناصر، في أقل تقدير. فثمة ثقافة تقليدية، تراثية تليدة بشطريها، لاتفترق جذورها عن جذور هُويتنا القومية؛ وشخصيتنا التاريخية. فهي نَسَبَنا الولادي، لم يُكتب لنا إختياره، ولكننا قبلناه، فالتزمنا

به، كما يفهم (سارتر) معنى الالتزام. ولئن ساءنا تقويم بعض مافيه، فإن الأساطير ذاتها بعضٌ محبَّب في تراث الشعوب، ومجلى مريح في أشواق التخيل الفني العذب.

وثمة ثانياً ثقافة عربية معاصرة، جاءت أنساغها من هناك، من كل مكان، غرباً وشرقاً. وهي مطلوبة، ومرادة تارة، مكروهة ومحرَّمة تارة أخرى. ولكنها دوماً آتية، مطرّدة، غازية إذا شئنا، وأحياناً مأمولة مرتجاة للشفاء والنجاة.

وثمة ثالثاً ثقافة متميزة عندنا، كما هي الحال في سائر أصقاع الدنيا، يريدها العلماء والكتّاب والأدباء والمسؤولون المجتمعيون الغيارى على أن تكون لحياتهم الدنيوية قيمة، وأن يخلّفوا في زمانهم طابعَهم، أو يتركوا بصمات عبقريتهم خالدة في الأرض كما يقال.

وثمة رابعاً، وليس آخراً، ثقافة العامّة، ثقافة الجمهور، ثقافة أهلنا في رحاب الحضر والمدر، وهي انبثاقات عفوية المنطلق، واندفاعات ظرفية تتبع المتغيرات والملابسات. وجلّها رواسب حائلة عن أصول غابرة إلى درجة التشوه والإنحراف، بل والميل والانقلاب. ومنها يمتح السواد المعرفة والأهداف، والقيم وسبل السلوك. وهذه الثقافة العامية، ثقافة كل بيت، محل عناية وسائل الإعلام ولاسيما المرئي والمسموع منها. وبهذه الوسائل الخطرة تتقدم الثقافة العامية أو تتخلف، تزدهر أو تذبل، ترقى أو تنحط.

ومبعث الخشية أن تحجب وسائل الإعلام، بسُدُفها وإلحافها، فرص الاستبصار، وتدكّ أركان الوعي والتقدير السليم دكاً، فيمسي القطيع مطيعاً،

والرهط مستجيباً، إلا إذا انبجس عن الظلام نور بكفاح ثقافي صادق، فتنقشع السحب، وتتألق الأقمار العقلية، ويرقى الشعب، شعبنا، في جميع أقطاره، شطر ماينبغي للإنسان من توافر حرية، وكرامة وعلو مجد، وفخار.

إن الثقافة، في أحد أصول معناها اللغوي تثقيف الحذق، وحرث يؤتي ثماراً يانعة جنية. ولكي يتكشف المخاض الثقافي عن روح ثقافية حقيقية صحيحة قابلة للحياة وللنماء، لامندوحة عن العمل على إقامة توازن ثقافي تلتقي فيه العناصر الكثيرة، والأبعاد، لقاء إخصاب متجدد شهي ثمين. وإن الثقافة العربية المعاصرة المنفتحة، حباً أو كرهاً، على العالَم الأرحب، مدعوة إلى بذل الجهد الدائب العميق بالتقدير، جهد التركيب التقدمي المبدع. وقد بدأ مثقفونا غرس الشجرة العظمى، شجرة النور، وإنها لشجرة كريمة سامقة نامية بقوة إمكاناتنا القومية التي لاتموت، لتسهم مع الناس، كل الناس، في بناء مدنية الإنسان.

الحواشي

(١) ابن قتيبة : عيون الأخبار ـ ص (ي) .

(٢) القاضي عبد الجبار : المغني في أبواب التوحيد والعدل ـ (ج ١٦ : إعجاز القرآن ـ القاهرة ١٩٦٠ ص١٩٩) .

(٣) النويري : نهاية الأرب في فنون الأدب .

(٤) خالد زيادة : أزمة كتّاب أم أزمة ثقافة (مجلة الناقد ـ العدد ٥٠ ـ آب ١٩٩٢ ص ٢٣) .

(٥) يوسف بزي : الثقافة في خانة الخيبة ـ المثقفون العرب والعالم الجديد (مجلة الناقد ـ المرجع السابق ص٢٤) .

(٦) انطون مقدسي : اختراق الجسد العربي (مجلة الناقد ـ المرجع السابق ص ١٦ ـ ١٧) .

(٧) محمد كرد علي : خطط الشام ط ٣ بيروت ١٩٧٢ ج ٦ ص ٣٣٩ .